

الفصل السادس عشر

نصيبين^(١)

أسرع وزير الحربية إلى مقر القيادة العليا لجيش إبراهيم . وكان الطريق أمامه طويلاً ، ولا يستطيع هو السير فيه مسرعاً كما يسير الرسول . ولذلك سبقه مبعوث خاص يحمل إلى إبراهيم أوامر أبيه . ولم نستطع الاطلاع على نص هذه الأوامر ، ولكن في مقدورنا أن نتكهن بمعناها لأن إبراهيم قد خول منذ يونيه سنة ١٨٣٩ الحق المطلق في أن يفعل كل ما يراه صالحاً ، فيبدأ الحرب أو يحافظ على السلم حسبما تمليه عليه الظروف^(٢) .

ولما ترك محمد علي لإبراهيم أن يتصرف في الأمر بحكمته وحسن تدبيره ، كان يعرف أنه لن يهاجم العدو إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطراراً ، على الرغم من أن تركيا ومصر كانتا في حالة حرب فعلية في البر والبحر منذ شهر مارس من عام ١٨٣٩ ، كما أنباء القنصل الإغريقي العام بالقاهرة حكومته في ٢٦ من ذلك الشهر^(٣) . واطالما استفز الأتراك إبراهيم بموقفهم العدائي ؛ ولولا قدرته على كبح جماح نفسه لتكشف ستار السلم عن حقيقة الحرب العالمية . وقد كتب في ذلك القنصل اليوناني العام في الإسكندرية إلى وزارة خارجيته بتاريخ ١٨ يونية يقول : « تدل الأنباء الواردة من المنطقة التي يعسكر فيها الجيشان في الوقت الحاضر

(١) تقع قرية نصيبين على الطريق الواصل بين بيرة جك والإسكندرونه وهي غير نصيبين التي بالجزيرة ويسمونها الإفرنج والترك نزيب .

(٢) بوليتس في كتابه السالف الذكر ص ٦٣ .

(٣) المصدر عينه ص ٥٨ .

على أن جيوش السلطان تواصل الزحف ، وتشجع أهل البلاد على الثورة بتقديم الأسلحة وبذل الوعود لهم . وقد تقدم (سليمان باشا والى مرعش) في جيش مكون من نحو ثمانمائة فارس ، حتى بلغ عينتاب واستولى على المدينة . وإن كانت قلعتها لا تزال في أيدي المصريين . ويقال إن حافظاً باشا القائد العام للجيش التركية كان مع هذه القوة ، ولكنه تخلف عنها قبل أن تصل إلى عينتاب . ورأى جنود السلطان سكوت الجيش المصرى وامتناعه عن القتال إطاعة للأوامر الصادرة من والى إلى إبراهيم باشا ، بعد أن هددته الدول الأوربية وأنذرته أن لا يكون البادئ بفتح باب العدوان ، فأغتنموا هذه الفرصة السانحة وتوغلوا في البلاد من غير أن يلاقوا مقاومة ، اللهم إلا مناوشة بين الفرسان السالفي الذكر وكتيبة صغيرة من البدو»^(١) .

وقد أفصح هذا القنصل العام نفسه في رسالة سابقة بعث بها إلى حكومته عن حقيقة تهديد الدول الأوربية . وقبل أن ننقل إلى القارئ شيئاً من هذه الرسالة ، نقول إن ميخائيل توسزا Michael Tossizza الذى بعث بهذه المعلومات إلى أثينا ، لم يكن من رجال الدبلوماسية الرسميين ، ولا من رجال البحرية ، بل كان تاجراً استوطن الإسكندرية قبل أن تستقل بلاد اليونان ، وكسب صداقة محمد على ، واحتفظ بهذه الصداقة . فلما أنشأت بلاد اليونان أول قنصلياتها في القطر المصرى في عام ١٨٣٣ ، عهدت بأمور القنصلية إليه . ولم يكن يرسل في أول الأمر تقارير منتظمة إلى وزارة خارجيته ، كما أنه لم يبدأ الاشتغال بالمسائل السياسية إلا في سنة ١٨٣٨^(٢) . ولم يكتسب قط في حياته ذلك الأسلوب

(١) المصدر عينه ص ٦٣ .

(٢) المصدر عينه ص ٣ من المقدمة .

الخاص الذى تكتب به المراسيم والوثائق السياسية ، بل كانت معانيه على الدوام واضحة كل الوضوح . ويمتاز ما كتبه توسزا بميزة أخرى غاية فى الأهمية ، وهى ناشئة من الصداقة الوثيقة التى كانت بينه وبين محمد على . وقد كتب هذا القنصل إلى وزارة خارجيته فى ٢٣ يوايه سنة ١٨٣٨ يقول :

« لقد أبلغ المستر كامبل وكيل إنجلترا السياسى الوالى بصفة رسمية أن بريطانيا العظمى تعارض أشد المعارضة فيما يطلبه من الاستقلال ، وتصر على أن يبقى كما هو ؛ وإلا فإن الدول الأربع إنجلترا وفرنسا والروسيا والنمسا ستعمل مجتمعة لمنع من نيل استقلاله ، ولو أدى ذلك إلى استخدام القوة . وهذه الدول متفقة على ذلك ، وقد قررت أن تزيد قوة الأسطولين البريطانى والفرنسى فى البحر الأبيض المتوسط ، وأن ترسل الجنود المساوية إلى بلاد الشام إذا استلزم الموقف ذلك . ويلوح أن سمو الوالى سيجيب بأنه إذا عجز عن نيل رغباته بالرضا والمسالمة ، فستلجئه الضرورة إلى أن يعمل لنيلها بوسائل أخرى ؛ ومهما كانت العاقبة فسيكون من أكبر دواعى الشرف له أن تهزمه الدول الأربع الكبرى » (١) .

وكتب توسزا رسالة أخرى فى ٦ سبتمبر سنة ١٨٣٨ يضم فيها بروسيا إلى جماعة الدول المتفقة . ولهذا الأمر أهميته ، لأننا عرفنا من قبل أن هلمث فون ملتكه كان وقتئذ مع الجيش العثمانى الذى كان يعمل بكل ما فى وسعه ليستثير غيظ إبراهيم . وليس يخفى علينا أن ملتكه كان فى ذلك الوقت رجلاً لا خطر له ، ولا يكاد يعرفه أحد ؛ ولكن انضمام النمسا والروسيا وبروسيا كان مقدمة لحلف القياصرة الثلاثة الذى تم فيما بعد ، ومضاعفاً للخطر الذى

كان يتعرض له جيش إبراهيم . وقد أبلغ قناصل هذه الدول الثلاث محمداً علياً أن دولهم لا تسمح بأن يطرأ على العلاقة القائمة بينه وبين الباب العالي تغيير ما ، وأنه إذا أقدم على عمل أيا كان نوعه فستنضم هذه الدول إلى تركيا لقتاله والتغلب عليه ؛ فأجابهم الباشا عن ذلك بقوله :

« إننى لا أرغب فى الحرب ، وإن أقدم على عمل عدائى ، ولكننى راغب فى الاستقلال ، ولن أتخلى عن هذه الغاية »^(١) .

على أن هذا التحذير كان له أثره فى نفس محمد على ؛ ورأى أن خير وسيلة لتجنب هذه الأحاديث البغيضة المنذرة بأسوأ العواقب ، أن يرحل إلى الجنوب . وكانت الإشاعات متواترة بأن مناجم من الذهب صالحة للاستغلال قد كشفت فى السودان . ورأى الباشا من مصلحته أن يتحقق من هذه الأنباء الهامة بنفسه ، حتى إذا ما اضطر إبراهيم إلى الزحف على الأتراك ، حلت بهذا الكشف مشكلة من أهم المشاكل . وزيادة على ذلك فإن غيابة يهيب الظروف للمسألة التركية كلها أن تستقر على قرار ثابت مكين . لكن هذا الغياب المؤقت لم يكن ليفت فى عضد الزمرة الدبلوماسية المتحدة ، التى ظلت تعارض محمداً علياً بعد رجوعه فى ١٥ مارس سنة ١٨٣٩ .

ولا شك فى أن إبراهيم كان يعرف كل هذه الحقائق ويعرف أيضاً كيف يتعظ بعبورها ؛ لأن أباه كان دائم الاتصال به لا يقطع عنه أخباره ؛ وكانت معرفته بها وتقديره خطر الموقف الذى كان يواجهه سبباً فى أنه لم يحرك ساكناً حينما استنار الأتراك غيظه ؛ وذلك لأنه أيقن أن الأتراك يلقون معونة أوروبا السياسية ؛ وعرف الباب العالي ذلك فوقف من المصريين هذا الموقف المغضب . وكان

(١) المصدر عينه ص ٤٤ .

فون ملتكه وفون ملباخ Von Mulbach وغيرهم من الضباط البروسيين لا يفتأون يحرضون قواد الترك العسكريين ، ويستعينون بما طبع عليه الألمان من اعتداد بالنفس ومغالاة في الاطمئنان إلى مقدرتهم ، فيغرون حافظاً باشا بالاستمرار على مناوأة إبراهيم .

وصادف تحريض الضباط البروسيين هوى في نفس القائد التركي العام ، فلم يشك قط في الظفر بأعدائه ، لأن له جيشاً جراراً ، وإدارة للمخابرات دقيقة النظام ، وهيئة طيبة من الضباط ، نواتها مساعدوه الألمان .

وشجعه على الاعتداد بنفسه أن إبراهيم لم يقابل هجومه في ٢٣ إبريل بهجوم مثله . ولما سقطت عينتاب في يده زاد اطمئنانه ، ولم يساوره قلق ما حتى جرى إليه بأحد الأسرى الذين وقعوا في يد الأتراك عند استيلائهم على قرية تل باشر . وهذا الأسير هو فرجاني شيخ عرب الهنادي . وكان رجلاً سواه الله وعدله ووهبه من الكبرياء بقدر ما وهبه من قوة الجسم . وأخذ القائد العام يسأل أسيره ، لعله يعرف منه ما يفيد في موقفه . لكن الرجل كان عنيداً لا يلين فأجابه بقوله : « عن أي شيء تسألني ؟ دونك رأسى فليس ينجيه منك لسانى ، بل ربما أوقعنى في الهلاك ، وكان منطقي سبباً في إراقة دمي » . فأجابه حافظ بقوله : « ان أمس شعرة من لحيتك إذا صدقتنى القول » . فقال له الأسير : « أقسم بالقرآن أنى سأبرح هذا المكان حياً سليماً من الأذى أخبرك بما تريد » . فلما أقسم ضحك فرجاني ملء شذقيه وقال :

« أتريد أن أخبرك بالحق وأطلعك على رأيي في معسكرك ومعسكر إبراهيم ؟ أتريد أن تعرف ما سيقع في المستقبل ؟ ألا هل يستطيع أحد أن يتنبأ بما في عالم الغيب ؟ لكنك إذا أصررت على معرفة الحقيقة فإنى مبلغك إياها . إن معسكر

إبراهيم معسكر جنود ، أما معسكركم فمعسكر حجاج .
 فقال له القائد التركي غاضباً : « وماذا تقصد بهذا القول ؟ » فرد عليه بقوله :
 « رأيت في معسكر إبراهيم أكداً من الأساحة وإلى جوارها كتائب من
 الجند المشاة مدججين بالسلاح ؛ ورأيت المدافع وإلى جانبها رجال المدفعية ؛ ورأيت
 الاصطبلات وبقر بها الفرسان ؛ ورأيت كل إنسان في موضعه متأهباً لأداء
 واجبه ؛ ولم أر شيئاً من ذلك في معسكركم ، بل رأيت فيه يهوداً وتجاراً وأئمة ؛
 رأيت فيه رجالاً يقرضون المال ، ورجالاً يبيعون وآخرين يصلون ، ولذلك قلت
 إن معسكركم أشبه شئاً بمعسكر الحجاج . وتساألني لمن سيكون النصر ؟ فأقول
 إن هذا ما لا أعرفه ، لأن علمه عند الله ، وستعلمن نبأه بعد حين » ^(١) .

إن الأتراك أغلاطاً ولكنهم قوم كرام . ومع أن حافظاً قد تألم وكاد
 يصعق مما قاله العربي الصريح ، فقد فك أسره وخلي سبيله ، وقبل أن يعود
 إليه صوابه جاءه رسول ومعه خطاب من إبراهيم ؛ ولم يكن هذا الرسول يحمل
 راية الهدنة لأن الحرب لم تكن أعلنت رسمياً بين الدولتين . وكان تاريخ الخطاب
 ٨ يونيه سنة ١٨٣٩ وقد جاء فيه :

« إن التعليمات التي أرسلتها الدول العظمى إلى قناصلها المقيمين في الإسكندرية
 قد أقنعتني بأنهن غير راضيات عن الحرب ؛ وإني لأعرف أيضاً أن سمو مولاي
 المعظم غير راض عنها ، ولكن على الرغم من هذا :

(١) فإن سليمان باشا المرعشلي أرسل فصيلة من جنوده هاجمت جيوشنا
 في بولانق .

(٢) وأرسلتم فرقة إلى باباس ^(٢) لتحريض أهلها على الانتفاض علينا .

(١) كدلقين وبرو في كتابهما السالف الذكر جزء ١ ص ١٨٨ .

(٢) ميناء صغير في خليج الإسكندرونة . (المغرب)

- (٣) وبعثتم بالحاج عمر أوغلو إلى كرد داغ^(١) للغرض نفسه .
- (٤) وغزوتهم أرضنا وهاجمت عرب الهنادى التابعين لنا .
- (٥) ووزعتم الأسلحة على أهل ولاية عينتاب ، ودخل سليمان باشا المرعشلى هذه المدينة ولا يزال باقيا فيها إلى الآن . وبالأمر هاجمت قوة من الفرسان تحت قيادة سعادتكم صفوفنا وأمرتم مدفعيتكم أن تصوب نيرانها على فرساننا الهنادى فى مخافتنا الأمامية » .

وبعد أن ذكر إبراهيم هذه الأسباب قال :

« ولقد صبرت إلى الآن على هذا كله ولم أقابله بمثله ، لأننى كنت أحاول أن أقنع نفسى بأن هذه الأعمال العدائية تغضب الساطان مولانا المعظم . فإذا كنتم سعادتكم تعززون سكوتى عنها إلى الخوف فإنكم مخطئون فى ظنكم ، إذ ليس لسكوتى إلا سبب واحد هو حرصى على احترام رغبات سمو والدى وسيدى المعظم . وإذا كنتم سعادتكم قد تلقيتم الأمر باستئناف القتال ، فما بالكم تنهجون هذا النهج وتدسون الدسائس . هلموا إلى ميدان القتال ، ولكن هلموا إليه بصراحة ، وخوضوا غمرات الحرب كما يجب أن تخاض . ولا إخالكم قد نسيت ما حدث منذ بضع سنين ، وستلقون رجالاً لا يعرف الخوف طريقه إلى قلوبهم ؛ أما الدسائس فإننا لا نطبق احتمالها إلى الأبد . فهل أخطئ منكم بجواب صريح ؟ فإن فعلتم فسينقل ردكم إلى إذا رغبتهم حامل هذا الخطاب الأمير ألى محمود بك^(٢) » .

واستقبل حافظ باشا الأمير ألى والبكباشى الذى كان يصحبه أحسن

(١) جبل الأكراد (العرب)

(٢) كدلقين وبرو جزء ١ ص ١٩٣

استقبال ، وأتحفهم بالهدايا وأخبرهم أنه سيرسل رده في اليوم التالي . وكانت الروح السارية في هذا الرد من أوله إلى آخره هي أن الخضوع لا يكون بالأقوال بل بالأفعال . ثم انتقل حافظ باشا من هذا المبدأ إلى قوله إنه لا يعترف بأن التهم التي يوجهها إليه إبراهيم قائمة على أساس صحيح ؛ وحاول أن يثبت أن الجنود المصرية لا الجنود الشاهانية هي المعتدية ، وجاء في ختام هذا الخطاب ما يأتي :

« لقد أعطيت لنفسى الحرية في كتابة هذه الرسالة الودية ، لتكون دليلاً على حسن نيتي ؛ وقد أرسلتها مع الأميرالاي حاذق بك ، وبصحبه الأميرالاي أحمد بك من ضباط الجيش الشاهاني المظفر . وعند ما تصالكم هذه الرسالة إن شاء الله سيتوقف العمل بما فيها على حكمتكم السامية »^(١) .

وبينما كان القائدان يتبادلان الرسائل على هذا النحو ، كان رسول يستحث الخطى إلى إبراهيم ، يحمل إليه رسالة من أبيه مؤرخة ٩ يونيه سنة ١٨٣٩ يقول فيها :

« تسلمت رسالتك التي تقول فيها إن العدو يواصل زحفه ، وإنه احتل الآن ستين قرية وراء عينتاب ، وإنه وزع السلاح على الأهالي وحرص العصاة على مهاجمة عكّار^(٢) وسلب أموال حاكمها وقتله . وقد قلت بعد ذلك إنه ليس من الحكمة أن يسمح للأتراك بالسير على هذه الخطة ، وطلبت إلى أن أخبرك بما تفعل .

« إن اعتداء العدو علينا قد تجاوز كل حد معقول ، وإذا ما صبرنا عليه بعد ذلك عن علينا أن نقفه ، لأنه يبذر بذور الفتن ذات اليمين وذات الشمال ؛

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ١٩٧

(٢) بلد صغير واقع على بعد ٣٢ كيلو مترا من شرقي طرابلس والذين هجموا عليه في ذلك الوقت هم المتأولة . (المعرب)

وكما صبرنا عليه رغبة منا في عدم معارضة رغبات الدول الكبرى ، زاد عدونا إيقالا في بلادنا وزادت الأمور حرجا . وتلك حال ترغنا على العمل ؛ فعلمنا أن نرد هجومه بهجوم مثله . ولما كان العدو هو المعتدى فإن الدول لن تاتى التبعة علينا .

« فنصيحتي إليك أن تبادر عند وصول رسالتى إلى يدك بالهجوم على جنود العدو الذين دخلوا فى أرضنا ، وأن لا تكتفى بإخراجهم منها ، بل عليك أن ترحف على جيش العدو الأكبر وتقاتله »^(١) .

ووصلت هذه الأوامر إلى إبراهيم فى غسق الليل ؛ فأراد أن يهاجم العدو عند مطلع فجر اليوم التالى . ورأى سليمان باشا (الكولونل سيف ساعد إبراهيم الأيمن ، الذى طالما أشرنا إليه فى هذا الكتاب) غير هذا رأى ، وأصر على أن وجود الضباط البروسيين فى جيش حافظ باشا يحمله على الظن بأن مواقع العدو قوية محصنة ؛ وطلب الضابط الفرنسى أن يستكشفها بنفسهما تلك المواقع قبل الهجوم عليه . ولما كان من شيمة إبراهيم أن ينصاع دائما إلى حكم العقل ، فقد قبل هذا رأى عن رضا وطيب خاطر .

وفى صباح اليوم التالى اضطلع القائدان بنفسهما بتلك المهمة الخطيرة ، مهمة استطلاع مواقع الجيش التركى . ومازالا يقتربان من خط النار حتى أصاب الرصاص حصان أحد جنودهما فقتله . وكانت نتيجة هذا الاستطلاع أن عرفا أن نصيبين التى اعتصم بها حافظ باشا أمنع من عقاب الجو ، وأن ليس فى مقدورها أن يستوليا عليها عنوة^(٢) ، لأن قون ملتكه وقون ملباخ نصبا معسكر الأتراك

(١) تُترنييه فى كتابه السالف الذكر ص ٣٠٩ .

(٢) المصدر عينه ص ٣١٢ .

عند سفح التل الذى يجرى عنده نهر كرزين^(١) ، وجعلوا هذا النهر حائلا بين المصريين والجيش التركى . ولذلك اضطر المصريون أن ينسحبوا من مواقعهم ويهاجموا العدو من جهة أخرى . وأيقن إبراهيم وسليمان باشا أن الفضل فى اختيار هذا الموقع المنيع الذى اتخذته الجيش التركى لنفسه يرجع إلى مهارة الضباط البروسيين وخبرتهم الفنية ، ولكنهما قدرا أن الألمان لن يستطيعوا أن يتنبأوا بالحركة الجريئة التى سوف يقدمان عليها .

والحق أنهما لم يخطئا التقدير ، لكنهما حين أقدما على ما أقدما عليه عرضا أنفسهما لأشد الأخطار رغم أنهما بنيا خططهما على نفسية البروسيين وعقلية الأتراك . وقد وصف تلك الخطة إيميه فنترنيه Aimé Vingtrinier صاحب سيرة سليمان باشا بقوله :

« وكانت فكرة سليمان وميضاً من العبقرية إذا أفاجت وأوهاماً من عقل مخبول إذا أخفقت . ولكنه كان مؤمناً بصوابها ، واستطاع أن يثبت هذا الإيمان فى الجيش كله لا فرق بين قائده الأعلى وأصغر جندى فيه »^(٢) .

وكانت الخطة التى نفذت بإشراف إبراهيم وعلى مسؤوليته هى أن يترك الجيش المصرى المعسكر الذى كان يحتله وقتئذ ، ويسير مخترقاً قرية مزار^(٣) ، وأن يتم ذلك بين طلوع الفجر وغسق الليل ؛ ثم يلتف حول جبل بيازار ويعود بعدئذ فيتجه نحو العدو مولياً وجهه شطر الجنوب فى اتجاه قرية كرد قلعة^(٤) ،

(١) هو نهر يصب فى الفرات وتقع نصيبين على ضفته اليسرى . وقد كتبه المؤلف وفنترنيه كرسيم وكتبه فريد بك قرصيم ، ولكن الخرائط التى اطلعنا عليها وكذلك كدلقين وزميله والرافقى بك يكتبونه كرزين . (المعرب)

(٢) المصدر عينه ص ٣١٤ .

(٣) تقع هذه القرية جنوبى نصيبين بغرب . (المعرب)

(٤) فى الجزء الأول من كتاب كدلقين وبرووفى كتاب الرافقى بك رسم واضح =

وكانت الفكرة التي بنيت عليها هذه الحركة كلها هي : أولاً أن قون ملتهكه عند ما يرى أن الجيش المصري قد رفع معسكره لا يشك . طاقاً في أن قواد هذا الجيش لن يفعلوا ما كانوا ينوون أن يفعلوه ، وهو تعريض جنابهم للخطر ، وأنه سيمكنهم بذلك من أن ينفذوا الشرط الأول من خططهم قبل أن يدرك حقيقةتها . وثانياً أن قون ملتهكه إذا ما أدرك حقيقة الموقف وأراد الانسحاب إلى مواقع خير من مواقعه الأولى لمهاجم منها المصريين قبل أن يصلوا إلى أماكن آمنة ، لن يتمكن من التغلب على كبرياء القائد التركي ، بل إن هذا القائد سيتغلب على المنطق الألماني الضعيف .

ويقال إنه لما فرض حافظ باشا رأيه على الضباط الألمان غضبوا أشد الغضب ورفضوا إليه استقالتهم ؛ فلما فعلوا ذلك قل لهم السر عسكر « إن الجندي لا يستقيل قبيل الموقعة » . وكان هذا الاتجاه إلى المبادئ الخلقية العسكرية كافياً لحل المشكلة ، فلم ينسحب قون ملتهكه بل أفرغ وسعه في معالجة هذه الحال الطارئة ، فعدل خطته ونقل مدافعه التي أصبحت عديمة الفائدة ، لأن للمصريين أبواباً أن يقدموا أجسامهم طعاماً لنيرانها ، ووضعوا حيث يمكنه الاستفادة منها . وأيقن أن الموقعة الحاسمة ستبدأ عند مطلع فجر اليوم التالي ؛ وكان يخشى أن تكون نتيجةها وبالاً على الجيش العثماني ، لأن إبراهيم خرج على القوانين الحربية ، فأبى أن يتبع البديهيّات الأولى في فن الحروب ، وخرق مبادئها الأولية . ولشد ما تألم

== لموقعة نصيبين ومواقف الجيوش المخاربة والأماكن الواردة هنا فليطلع عليه من شاء . ولم نعر في جميع المصادر التي اطلعنا عليها على اسم القرية التي يسميها قنترنييه والمؤلف Kardikala ويسميها كدليكين وزميله Cordikala ، وقد راجعنا من أجل ذلك من المصادر التركية قاموس الأعلام لشمس الدين سامي بك ومعجم التاريخ والجغرافيا لعلى جواد بك والكتاب السنوي لولاية حلب وبعض الأطالس التركية عدا المصادر العربية الكثيرة ، واستعنا بمن نعرفهم من أفاضل الأتراك والسوريين . وأكبر ظننا أن الاسم الذي أثبتناه هنا هو الاسم الصحيح (المعرب)

ذلك العالم الخبير بفنون الحرب حين رأى أن عدوه قد أبى أن يعمل ما يجب عليه أن يعمل . ولا شك في أنه كان يعتقد أن أمثال ماكلهون Mac Mahon وبارزين Bazaine^(١) ممن يتمسكون بالقواعد والأصول ، خير من رجال كإبراهيم أو سليمان باشا يضعون قواعدهم لأنفسهم .

وما أسفر صبح اليوم الرابع والعشرين من شهر يونيه حتى بدأت المعركة بهجوم المصريين . وكان جل اعتماد الأتراك على فرسانهم لأنهم ظنوا أن طبيعة الأرض تحتم عليهم اتباع هذه الخطة الخريبة . وقد يكونون مصيبين في ظنهم لأننا لا ندعى لأنفسنا تلك الخبرة بالفنون العسكرية التي تمكننا من أن نبدي رأيا في هذا الموضوع . وكل الذي يعنيننا هنا هو أن مشاة المصريين صدوا هجوم الفرسان العثمانيين ، فولى هؤلاء الفرسان الأدبار لا يلوى آخرهم على أولهم . وعندئذ وقع الاضطراب في صفوف الجيش العثماني كله ، فتضعفت أركانه ولم تأت الساعة التاسعة حتى كان إبراهيم سيد الميدان غير المنازع .

وأقبل إبراهيم على خيمة حافظ باشا . وقد وصفها فنترنييه وصفاً لا نعتقد أنه كان جادا فيه ؛ لأنه قال « إنها كانت واسعة الأرجاء كأنها قصر مشيد ، مزخرفة كأنها حجرة استقبال لأحد الأباطرة العظام ، يهر الرأى جلالها وعظمتها »^(٢) . يبدو على هذا القول كثير من المبالغة ، ولكن الذي لا شك فيه أنه كان في هذه الخيمة المزخرفة أريكة من الأرائك التركية المطعمة بالصدف ، البعيدة عن الذوق والجمال الفني بعدها عن النفع ، ثمنها عظيم ولكن الجالس عليها في عناء معين . وقد ترك بعضهم على هذه الأريكة أوسمة حافظ باشا ورسائله .

(١) قائدان من قواد الحرب الفرنسية الألمانية (١٨٧٠ — ١٨٧١) هزهما الجيش الألماني في هذه الحرب . (المغرب)

(٢) فنترنييه في كتابه السالف الذكر ص ٣٣٠ .

فلما دخل إبراهيم هذا المسكن المؤقت المترف ، الذى لانشك فى أن فون ملتكه كان يعدده مخالفا للسطرين الثالث والرابع من الفقرة التاسعة من القسم الرابع عشر من المادة الثانية عشرة بعد المائتين من القواعد الخاصة بنظام الجيوش فى الميدان ، كان يكسوه العثير ويتصبب من جبينه العرق . ولما رأى هذه الأبهة الكاذبة تبسم ابتسامة ملؤها السخرية والازدراء ، ومشى من فوره إلى الأريكة غير حافل بالأوسمة التى لم تكن لها قيمة فى نظره ، لأنه أكبر من أن يهتم بهذه الصفات . ولكن الوثائق المتروكة وما قد يكون فيها من أمور ذات بال استرعت نظره ، فوقف يفحصها ؛ وإذا به يجد فيها فرمانا يعين حافظا باشا والياً على مصر بدل والده^(١) . فأمر أن يعنى بفحص الأوراق الباقية عساه أن يجد فيها من المعلومات ماله قيمة حربية . وبعد أن وكل هذه الأمور إلى من يعنى بها ، أرسل الفرسان المصريين لمطاردة الأتراك الفارين ، وأعد العدة لمواصلة الزحف على مرعش وملطيه وديار بكر .

ويقول لنا القنصل اليونانى العام فى تقريره المرسل إلى أثينا إن إبراهيم كتب إلى محمد على من خيمة حافظ باشا نفسه يذنبه بهزيمة الأتراك ، وأن الموقعة لم تدم أكثر من ساعتين ، وأن البشير وصل بهذا النبأ السار إلى القاهرة فى اليوم الثالث من شهر يولييه^(٢) ؛ ومنها أرسل بالبرق إلى الإسكندرية حيث كان الباشا مقبلاً فى ذلك الوقت^(٣) . وجاء فى تقرير قنصلى آخر أن مدافع الجيش

(١) مصر فى القرن التاسع عشر تأليف إدورد جون طبعه فى باريس بوزارص ١٥٤ ؛ والكتاب مترجم إلى العربية بقلم الأستاذ محمد مسعود . (المغرب)

(٢) فى الأصل الإنجليزى ٣ يونيه واقد استنتجنا من أول الأمر أنه ٣ يولييه ثم رجعنا إلى المصدر الذى اعتمد عليه المؤلف وهو كتاب « النزاع بين تركيا ومصر » فوجدنا تسرا يقول بصرح العبارة إن الأخبار وصلت إلى الاسكندرية من القاهرة بطريق البرق فى ٣ يولييه ثم تأيد النبأ فى المساء بخطاب جاء بالبريد . (المغرب)

(٣) پوليتس فى كتابه السالف الذكر ص ٧٠ .

لم تطلق أكثر من ساعة ونصف ساعة ، وأن الأتراك زلزلت أقدامهم فجأة ، فطارت قلوبهم وولوا مدبرين ، وأنهم خسروا خمسة آلاف قتيل ونحو سبعة آلاف أو ثمانية آلاف أسير ، أما عدد الجرحى فلم يرد له ذكر في هذا التقرير^(١) . ولم يعيش السلطان محمود حتى يعرف نتيجة مغامرته العظيمة ضد أعظم أتباعه وأشدهم بطشا ، بل وافته المنية بعد يومين من واقعة نصييين ، وقبل أن يصل نبأ هذه الطامة التي حلت بالجيش التركي إلى الأستانة . ويقول القميصونت بنسبى في موته : « لاشك في أن العلة كانت قد نشرت جناحيها عليه منذ شهر ، وأنه لم يحس بوطأتها فظل يعمل كل ما من شأنه أن يعجل يوم حمامه » .

وماذا كانت علة السلطان يا ترى ؟ لقد اختلف الأطباء في تشخيص مرض عليهم الكبير ، فأما الطبيب الإنجليزي الدكتور ماچن Dr Milligen الذي عرض عليه فقال إن محموداً قضى نحبه بسبب اضطراب في المخ ناتج من إدمان المسكرات ؛ وقال الدكتور نونر Dr Neuner الذي كان يعالجه إنه مات بذات الصدر ، ووافق الحكيم باشى التركي كبير أطباء القصر على رأى الطبيب البريطاني^(٢) . ويذكرنا هذا الجدل بالجدل الذي ثار منذ أربعين عاماً أو نحوها حول موت القيصر فردريك الثالث Kaiser Frederick III ؛ والفرق بين الحالين أنه لم يوجد وقتئذ لسوء الحظ إلى جانب السرمرل مكنزى Sir morell Mackenzie طبيب تركى يفصل بين الآراء المختلفة . والآن فلنعد إلى محمود لنقول إننا صورناه في صورة رجل جبان متردد لا يثبت على حال . ولربما كنا قد ظلمناه حين صورناه بهذه الصورة ، وحين نقلنا رأى الدكتور ماچن في مرضه ، ولذلك وجب علينا

(١) پوليتس في كتابه السالف الذكر ص ٧٢ .

(٢) كدلتين وبرو في كتابهما السالف الذكر ص ٣٠٦ وما بعدها

أن نبادر إلى القول بأن السفير البريطاني في بلاطه قد كتب فيه يقول :
 « يدهش الإنسان من شدة الحزن عليه ومن كثرة من أسفوا لموته .
 ولما كان الناس لا يملقون الرجل إذا مات وأصبحوا لا يرجون ثوابه أو يخافون
 عقابه ، فإننا لا نخطئ إذا اعتقدنا أن الرجل الذي حزن عليه الناس هذا
 الحزن بعد مماته ، كان في حياته موضع إجلالهم »^(١) .

وأراد الله أن لا يأسى لهزيمة الأتراك المنكرة قلب آخر هو قلب السيدة
 هستر لوسى استانهوب Hester Lucy Stanhope ، فقد وافاها القدر بينما كان
 الجيشان يتحفزان للهجوم . وأكبر ظننا أنها لو لم تعاجلها منيتها لأوقفت إنجلترا
 موقف العداء الشديد من أغراض محمد علي . وإن كانت حكومات أوروبا لم
 تكن في حاجة إلى جرأة امرأة باسلة لتحفزهن للضغط على الباشا ، إلا فرنسا التي
 وقفت منه موقف الصديق ، حتى قال بعض المؤرخين إن باريس أرادت أن
 تستغل هذه الصداقة . وسواء أكان ذلك أم لم يكن ، فإن وزارة الخارجية
 الفرنسية ما كادت تسمع بأن موقعة نصيبين قد أبادت قوة الأتراك الحربية ،
 حتى أرسلت من فورها رسولا هو السكبتن كيه Captain Caillé إلى المعسكر
 المصري . ولم يقف إبراهيم مكتوف اليدين بعد أن أباد جيش حافظ باشا ؛ وذلك
 أنه عثر على خطة العدو الحربية فوجدها مقسمة تسعة أقسام ، جاء في القسم
 السابع منها بصريح العبارة أن الاستيلاء على مصر يجب أن يكون الغرض الثاني
 من أغراض الأتراك . فلما أيقن إبراهيم أن السلطان كان ينوي أن يجعل هذه
 الحرب ساحقة ماحقة ، زال ما عسى أن يكون لديه من أثر للتردد في مواصلة

(١) تاريخ الثورة المصرية تأليف ا . ا . بيتن طبعة ترينر وشركائه بلندن سنة ١٨٦٣

الزحف . وكان من أول أعماله أن استرد عينتاب ؛ وكان مفتى هذه البلدة من أولئك الزعماء المسلمين الذين اتهموا إبراهيم بأنه رافضى ، وأذاعوا هذه التهمة في طول البلاد وعرضها ، وجاهر بانضمامه إلى الأتراك . فلما هزمت الجيوش الشاهانية أراد أن يتظاهر بالانتصار للمصريين ؛ ولكن عيون إبراهيم لم تكن تخفى عليهم خافية ، فلقبت هذه الخديعة ما تستحقه من العقاب . ولما حضر بين يديه قال له إبراهيم : « لقد اتهمتني بالزندقة ونسيت أنى أنا الذى فتحت الكعبة للمسلمين الصادقين ، حتى صار فى استطاعة أية امرأة أن تحج بيت الله بمفردها . ألا ترى أنك قد ظلمتني ظلماً بيناً حين رميتني بالزندقة مع علمك أنى أنا حامى الحرمين الشريفين ؟ إنك لخزير تسعى إلى إيقاظ الفتنة والعمل على خراب بلاد الإسلام »^(١) ، ولم يقل لنا بعد ذلك كدلقين وبرو اللذان يقصان هذه القصة هل عوقب المفتى أو عفى عنه ؟

ولم تكن سرعة إبراهيم فى زحفه لتمنع السكپتن كيه رسول الحكومة الفرنسية من أن يلحق به بعد زمن قصير . وكان هذا الضابط قد وصل إلى الإسكندرية قبل أن تبلغها أخبار واقعة نصيبين ، ولكن بعد أن أيقن كل الناس أن التعمام الجيشين أصبح لا مندوحة عنه . وكان يحمل معه رسائل من رئيس الوزارة الفرنسية المارشال سولت Marshal Soult ، نص فيها صراحة على أن الدول الخمس قد قررت أن تتدخل فى النزاع ، وأن توقف الأعمال الحربية إذا كانت قد بدأت بالفعل^(٢) . وقد حصل هذا الرسول على خطاب من محمد على لإبراهيم أسرع به إلى بلاد الشام ؛ فلحق القائد المظفر فى ٢٩ يونيه وقت

(١) كدلقين وبرو فى كتابهما السالف الذكر جزء ١ ص ٢٨١ .

(٢) بوليتس فى كتابه السالف الذكر ص ٦٣ .

أن كان الجيش يحط رحاله ليقضى الليلة عند أنج صو .

ورحب إبراهيم بكبيه وأكرم مشواه ، لأن الكرم غريزة متأصلة في نفس كل شرقى . وضاعف من إكرام إبراهيم له وتحفیه به ، أن كبيه أكد له أنه قد سافر ليلاً ونهاراً ، لكي يكون أول ممثل أجنبي يقدم إليه التهاني ؛ وبقي برهة من الزمن لا يقول في خلالها لإبراهيم شيئاً يثبط من عزيمته ، ويقلل من حماسه ، حتى إذا ما انتقل الحديث إلى حركات الأساطيل الأوربية وسئل كبيه عنها قال : « إني أحمل إليك خطاباً من أبيك » . وسر إبراهيم حين سمع بهذا النبأ ، ففرض خاتم الرسالة من فوره . وما كان أشد أسفه إذ قرأ فيها أمراً من أبيه بوقف تقدم الجنود . فلما تبين ذلك له قال غاضباً : « هذا محال ؛ لقد كتب هذا الخطاب قبل أن ننال النصر في نصيبين . إن هذه الواقعة وما سبقها من تحرش بنا ببطالان هذه الأوامر ؛ ولذلك لن أعمل بها وسأحمل تبعه عصيانها » .

ويؤسفنا أننا لم نجد خطاب محمد علي ؛ ولكننا نستطيع أن تبين روح هذا الخطاب بوجه عام من جواب إبراهيم عنه ، فقد كتب هذا الرد في صورة الغائب وبدأه بقوله :

« هذا ما يعرضه عليكم خادمكم الخاضع :

« لقد علم ما أصدره إليه ولي نعمته ، أى سموكم ، من الأوامر التي احتواها هذا الخطاب المؤرخ ١٦ يونيه . وقد حمل إليه هذا الخطاب المسمى كبيه ياور رئيس مجلس الوزراء الفرنسى سعادة المارشال سوات المعظم » .

وبعد أن شرح بالتفصيل تحرش حافظ باشا به قال إن الجيش بعد موقعة نصيبين لا يسعه إلا أن يواصل الزحف أو يتقهقر ، لأنه لا يستطيع أن يجد المؤن حيث هو ثم قال :

« وهل سمع أحد من الناس أن جيشاً ظافراً يتقهقر ؟ أما إذا واصل الجيش الزحف فإنه يجد الأرزاق مكفولة . وما دام التقهقر أمراً لا يمكن التفكير فيه فقد أصبحت مرعش وبيره جك مقصد قوات سموكم ، لأننا نستطيع أن نجد فيه ما حاجتنا ؛ ولهذا الأسباب فنحن مضطرون إلى الزحف على أورفه ومرعش ، وأرجو أن يترك للسلطة المختصة أن تقرر هي حركات الجيش المستقبلية »^(١) .

ويقول فئترنييه إن إبراهيم لما قرأ رسالة محمد علي غضب أشد الغضب « ولم يرع حرمة أبيه ولا حرمة فرنسا ولا حرمة الرسول »^(٢) ، لكن مؤرخ سليمان باشا لم يستق معلوماته من أصولها ، بل أخذ معظم ما كتب عن كتاب كدلفين وبرو المسمى « سنتان من تاريخ المشرق » والذي نشر في عام ١٨٤٠ ونقلنا عنه كثيراً في هذا الكتاب . وهذان المؤلفان المعاصران لا يقولان إن إبراهيم « لم يرع حرمة أبيه ولا حرمة فرنسا ولا حرمة الرسول » بل كل ما يؤكده هو الفقرة التي نقلناها . على أننا لا نشك في أنه قد تأثر غاية التأثير ، لأن خطابه إلى محمد علي يوضح ذلك كل الوضوح . غير أن حبه لأبيه وإجلاله إياه ، كانا متأصلين في طبعه ، متمكنين من نفسه ، بدرجة تجعلنا لا نصدق أنه حتى في ساعة غضبه وألمه لم يحترم أباه .

قد نسلم بأنه سب فرنسا وكين كيينه ، بل نذهب إلى أبعد من ذلك إذ نميل إلى الاعتقاد بأنه قد صب جام غضبه على فرنسا وأفرغ عليها كل ما في

(١) العبارة في الأصل الإنجليزى مضطربة وقد ذكرت فيها متش بدل مرعش ولذلك رجعنا إلى الأصل التركى وإلى الترجمة الفرنسية له في كتاب كدلفين وبرو وقد ذكرت فيه بيته جك بدل بيره جك مع أن الأولى قرب بروصة ولاشأن لها بهذه المواقع . أما الثانية التي تسمى أحياناً « البيرة » فواقعة على الضفة اليسرى لنهر الفرات وهي المقصودة هنا من غير شك .

(٢) فئترنييه في كتابه السالف الذكر ص ٣١٠ .

نفسه من ألم . وحاول كيبه أن يجادل إبراهيم ليقنعه ، فأكد له . « معارضة أوروبا في قيام الحرب ، وأشار إلى أوامر محمد علي ، وإلى تدخل الدول العظمى الذي لا بد منه . ولكن القائد أبي أن يستمع إلى هذه الحجج ، وأجابه بقوله :

« لقد درست التاريخ أليس كذلك ؟ فهل سمعت مرة أن قائداً منتصراً وقف عن مواصلة زحفه ؟ إن كنت أنت قد سمعت بذلك فأنا لم أسمع به »

ولكن ذلك لم يفت في عضد كيبه ، بل أصر على أن تُغيّر القوتان الزاحفتان على ملطية وقونية اتجاههما ، وأن لا تعبرا جبال طوروس . لكن إبراهيم رفض هذا الاقتراح ، بحجة أنه لا بد له من أن يمنع الأتراك من إعداد جيش جديد لغزو الأملاك المصرية ، وأن يضمن لجنوده مؤوتهم . ولكن الفرنسي رغم هذا كله لم يتحول عن موقفه ؛ ولما ألح على إبراهيم قال له مغضباً :

« إني على استعداد لأن أتخلى لك عن قيادة جيشي وأسلمك مامعى من النقود لأنى لست في حاجة إلى الأراضي ؛ وإذا استطعت بعد ذلك أن تحتفظ بالشام وتمون جنودى فذلك ما أبغى . إني لن أترك بلاد الشام ، ولا بد لى من أن أطعم رجالى » .

ودامت هذه المواجهة خمس ساعات . وإذا كان إبراهيم قبل ختامها قد أغاظ في القول لهذا الرسول الملحف ، فلا لوم عليه في ذلك ؛ لأنك قل أن تجد من القواد من يضيع من وقته خمس ساعات يستمع فيها رسالة هو غير راض عنها . وبعد ذلك كله لم ييأس كيبه من بلوغ غرضه ، فاستأذن على إبراهيم في مطاع فجر اليوم التالى بينما كان الجنود يقتامون خيامهم . وكانت خيمة إبراهيم قد جردت مما فيها ، ووقف حرسه وحصانه في انتظاره ؛ فقابل الرسول الفرنسى مقابلة فائرة . ومع أن الخيمة كانت خالية من الكراسى والمقاعد ، فقد وقف كيبه على

الأرض وأطلق للسانه العنان ، حتى قال له إبراهيم آخر الأمر « لست أريد أن أدعوك إلى الخروج ، ولكنني أقول لك إنك إذا ظلمت تتحدث إلى عشر سنين طويلة فلن تستطيع أن تحولني عن رأيي » . وهنا قدر إبراهيم فأخطأ التقدير ، لأنه بقوله هذا كان يحكم على المستقبل . لقد كان صائب المنطق طالما كان يتكلم عن الماضي ويعصرف أمور الزمن الحاضر ، لكنه عندما تخطى الحاضر إلى المستقبل لم يأمن الزلل . ولم يخف ذلك على كيبه بل عرفه ودبر في ظلام الليل تدبيراً جديداً ، إذ اعترى أن تكون رغبات محمد على هي المحور الذي يدور عليه كل حديثه ، وأن لا يذكر شيئاً عن الدول إلا النزر اليسير .

ولم يكن في مقدور إبراهيم أن يتغلب على هذه الخطة ، لأن حبه لأبيه لم يكن حباً عادياً ؛ وإنما كان شغفاً بل تيمناً بل ديناً ، ولم يكن يستطيع أن يسلك سبيلاً قد لا يرضى عنها محمد على ، وما كان هذا الخوف منه بل الحب فيه . ولهذا انحلت عرى مقاومته وهو واقف على قدميه وحصانه المحبوب يبحث الأرض برجله على قيد بضعة خطوات منه . وعندئذ أجاب كيبه إلى ما طلب ، ورضى أن لا يعبر جبال طوروس ، وأن تقتصر أعماله الحربية على احتلال مرعش وأورفه ، وهما نقطتان لا غنى عنهما لضمان تموين جيشه . ولم يتحرك من مكانه حتى أمر أن يرسل رسول ليلحق طلائع جنوده ويقف زحفهم^(١) . فعل ذلك إبراهيم وهو آسف كل الأسف على ما فعل . فعله في ساعة نصره المبين لأنه لم يشأ أن يسبب المتاعب لأبيه .

(١) كدلفين وبرو في كتابهما السالف الذكر جزء ١ ص ٢٨٢ .